مدخل الى علم الاجتماع (ملخص)

اعداد: الأستاذ الدكتور نويصر بلقاسم

1-علم الاجتماع: التعريف ،الموضوع ، علم الاجتماع كعلم

لعل التحليل الدقيق لكلمة sociologie ، التي اطلقها **أوجست كونت Auguste Comte** عام 1838 و المشتقة من اللاتينية واليونانية أو هي مزيج غريب منهما – لا تقودنا فقط لمعرفة هوية ذلك العلم – علم الاجتماع – بل تقودنا أيضا إلى تحديد مهمته في المجتمع .

ولو تأملنا كلمة sociology فإننا نجدها مشكلة من كلمة socio التي تعني في اللغة اللاتينية المجتمع، societas ، والكلمة اليونانية Logos معناها العلم ، وتعني في اللغة اليونانية أيضا الدراسة المتعمقة وعليه فإن علم الاجتماع يعني الدراسة المعمقة أو الدقيقة للمجتمع، ويعرفه أوجست كونت **Auguste Comte** بانه الدراسة الواقعية المنظمة للظواهر الاجتماعية أو هو العلم النظري المجرد للظواهر الاجتماعية .

وحسب كونت فان الهدف الاساسي للدراسة في علم الاجتماع هو دراسة الظواهر الاجتماعية في حالة السكون (الاستاتيكا الاجتماعية) وفي حالة التغير (الديناميكا الاجتماعية)حيث لم يفسر لنا كونت المقصود بالظواهر الاجتماعية Phenomene social ولم يوضح خواصها .

تعريف **اميل دوركايم Emile Durkheim** : إذا كان كونت هو من دعي إلى تأسيس علم الاجتماع فإن الفضل في وضع الاسس العلمية لهذا العالم يعود إلى إميل دوركايم ، حيث يعرفه بأنه علم دراسة الظواهر الاجتماعية التي هي انعكاس لظروف اجتماعية معينة ، كما أنها ليست نتاجا للإدارة الانسانية الفردية كما أنها تختلف نوعيا عن الظواهر السيكولوجية .وقد ألف لأجل ذلك كتابا بعنوان قواعد المنهج في علم الاجتماع .

ويعرف الظاهرة الاجتماعية بأنها تلك التصرفات الانسانية التي توجد على درجة معينة من الانتشار في مجتمع معين وفي وقت معين ، كما حدد خصائصها المتمثلة في الشمولية ، التعقيد ،التركيب ،النسبية والخارجية (أي خارجة عن ذوات الافراد) وأخيرا الانسانية أي صادرة عن الانسان (الأفراد في حالة اجتماع تنشأ بينهم علاقات تفاعل اجتماعي وبالتالي تنشأ الظواهر الاجتماعية) ، كما يري دوركايم وهو بصدد تحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية بأنها ليست عشوائية أو اعتباطية، بل أنها تحدث على أساسا نظام معين (قوانين) ، ويتعين على الباحث الاجتماعي الكشف عن القوانين والعلل التي تحدث الظاهرة وفقا لها ، ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق البحث ، حيث يتعين على الباحث – حسبه- أن يتعامل مع الظاهرة كشيء بمعني أن ينآى بأفكاره المسبقة ومعتقداته وميولاته حينما يكون بصدد إخضاع ظاهرة ما إلى البحث .

ويعرفه هربرت **سبنسر H.Spencer** بأنه: العلم الذي يصف ويفسر نشأة وتطور النظم الاجتماعية وأن يقارن بين المجتمعات المختلفة من حيث نوعها وتطورها ، كما يهتم بالبناء الاجتماعي والوظائف الاجتماعية في المجتمع بصفة عامة .

تعريف **ماكس فيبر MAX Weber** عرفه بأنه العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي Action social من اجل الوصول إلى تفسير علمي لمجراه ونتائجه .

وعرفه **تالكوت بارسونز T.Parsons** بانه العلم الذي يدرس الأنساق الاجتماعية .

ويعرفه جونسون Johnson بانه العلم الذي يتناول الجماعات الاجتماعية بالتحليل ويركز على أشكال وأساليب تنظيمها الداخلي والعلميات التي تميل إلى استقرار أو تغيير هذه الأشكال التنظيمية ، وكذلك العلاقة بين الجماعات .

يعرفه **ليستر وارد L.Ward** بأنه علم المجتمع .

يعرفه **رينيه مونييه R.Monier** بانه علم الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الانسانية حسبما تسمح به مشاهدتها في الزمان والمكان .

يعرفه **هيدينج Hidding** بانه علم عام يدرس جميع فئات الظواهر الاجتماعية وإلا أنه (أي علم الاجتماع) يركز على تلك السمات المشتركة لمختلف الظواهر الفردية

تعريف **وليام اجبرن W.Ogburn** يعرفه بأنه الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية ، وأن التفاعل هو الركيزة التي ينهض عليها التنظيم الاجتماعي ومن ثم تنبثق عنه الثقافة التي هي صميم الدراسة في علم الاجتماع .

ويعرفه **ادوارد روس E.Ross** بانه علم الظواهر الاجتماعية

ويعرفه **سمول Small** بأنه علم العملية الاجتماعية : حيث أن المجتمع يعرف عدة عمليات تجري بين أفراده مثل: الصراع ، التنافس ، التضامن ، الوحدة ، التكافل الاجتماعي ، التغير الاجتماعي ، التكيف ، التوافق.

يعرفه ج**ورج زيمل G.Simmel** بانه علم يطبق المناهج العلمية أثناء دراسته للظواهر الاجتماعية ، التي تشبه حسب زيمل التحليل الهندسي لظواهر العلوم الطبيعية .

يعرف **سوركين Sorokin** بأنه علم دراسة الخصائص العامة المشتركة لكل صنوف الظواهر الاجتماعية ودراسة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر بعضها البعض يدرس العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية .

نلاحظ من التعاريف السابقة أنها تختلف في تعريفها لعلم الاجتماع ، حيث يركز البعض على الموضوع ، ويكز البعض الاخر على المنهج ، ويدمج البعض الاخر بين الموضوع والمنهج ورغم ما يبدو من اختلافات في تعريف هذا العلم إلا أنها تشترك في :

1- تتفق على ان علم الاجتماع يدرس الفعل الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي والجماعات الاجتماعية والظواهر الاجتماعية والانساق الاجتماعية ، والنظم الاجتماعية ، والتنظيمات الاجتماعية ، والعمليات مع التركيز على بناء statut ووظيفته fonction هذه الاشكال.
2- تتنوع التعاريف السابقة من حيث الضيق والاتساع فهناك من يحدد موضوعات العلم بأنه يدرس الفعل الاجتماعي وهناك من يري موضوع ممثلا في دراسة المجتمع ككل .حيث أن علم الاجتماع يهدف في حقيقة الأمر إلى رصد الوقائع الاجتماعية أو الظواهر الاجتماعية ، والكشف عن تكرار اتها النمطية ووصفها وتحليلها وتفسيرها بطريق علمية بغرض الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها ، وفضلا عن ذلك يهتم بمحاولة التنبؤ بما قد يحدث في المستقبل ، إذا ما توافرت نفس الشروط السابقة .

وعليه فإن علم الاجتماع يمثل نمطا فكريا يبتعد عن التفكير الفلسفي أو الميتافيزيقي وأن موضوعه هو دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة واقعية .

وفي ضوء ما سبق فان علم الاجتماع شأنه شان العلوم الطبيعية يتوفر على عناصر علمية التي تتمثل في الموضوع والمنهج والقانون (التنبؤ) ، حيث أن علم الاجتماع موضوعه الخاص وهو الدراسة العلمية المنسقة للعلاقات الاجتماعية المتبادلة التي تنشأ بين الافراد في المجتمع من حيث طبيعتها ونشاتها ووظائفها وديناميتها والتغيرات التي تطرأ عليها عبر الزمن ، كما يدرس الروابط الجمعية ، والبناء الاجتماعي والتفاعل الذي هو بين الافراد والجماعات ، والذي يؤدي إلى قيام النظم الاجتماعية والتنظيمات الاجتماعية التي ينتمي إليها الافراد ويشبعون حاجاتهم من خلالها .

ومن حيث المنهج يتبع علم الاجتماع في دراسة الظواهر الاجتماعية على المنهج العلمي ، حيث أرسي قواعد منهجية محددة تقوم على وصف الظواهر الاجتماعية وتحليلها ومحاولة الكشف عن العلاقة بينها وبين غيرها ، حيث ابتدع علم الاجتماع طرقا وقواعد منهجية تقوم على الملاحظة والتجربة ، وصولا إلى أكبر قدر من الموضوعية والقوانين التي تحكم الظواهر والوقائع وصياغة أو نظريات تفسر الواقع ، وبذلك أرسي علم الاجتماع دعائمه كنسق علمي مستقل يتساوى في ذلك مع كافة العلوم الآخرى .

حيث شهدت الحقب الاخيرة ازدهارا كبيرا للدراسات السوسيولوجية وظهرت نظريات تفسر جوانب الواقع الاجتماعي ، وأصبحت كثيرا من الأمم والدول تعتمد على الدراسات السوسيولوجية في مسائل الرأي العام والتخطيط والتنشئة الاجتماعية والسياسية والتنمية ومواجهة المشكلات النوعية في المجتمع ، هذا وقد غدى المتخرجون من حملة الشهادات في مختلف تخصصات علم الاجتماع من عناصر الموارد البشرية التي يعتمد عليها في تسيير الشأن العام ، ومختلف المؤسسات ذات الطبيعة الإدارية والاقتصادية والخدمية وسائر مؤسسات المجتمع بوجه عام .

إجمالا يمكن بيان حدود الدراسة في علم الاجتماع في :

1- دراسة الأفراد في حالة اجتماع : المجتمع ، الجماعات الاجتماعية
2- يهتم علم الاجتماع بدراسة العلاقات التي تنشأ بينهم نتيجة لحالة الاجتماع بمعني دراسة الظواهر الاجتماعية (التي هي نتيجة منطقية لعملية التفاعل التي تجري بين الأفراد)
3- دراسة العلاقات المنظمة للعلاقات الاجتماعية (أي دراسة النظم الاجتماعية)
4- يهتم علم الاجتماع بدارسة البيئة الاجتماعية (اللغة والعلاقات والتقاليد والاعراف والمعتقدات والتراث الاجتماعي وعناصره من فنون ومظاهر الحياة والحضارة ومعايير الأخلاق وأساليب العمل ونماذج التفكير والمعارف التكنولوجية .
5- دراسة الشخصية التي هي موضوع التفاعل الاجتماعي لأن المجتمع لا يعد كونه مجموعة من الشخصيات المتفاعلة .
6- يهتم بدارسة التفاعل الاجتماعي . أي ان علم الاجتماع يدرس :
   - السلوك الانساني
   - التفاعل الاجتماعي
   - البنى الاجتماعية
   - الظواهر الاجتماعية

2-ملامح الفكر الاجتماعي قبل ظهور علم الاجتماع:

على الرغم من ان علم الاجتماع علم حديث النشأة، إلا أن التفكير الاجتماعي قديم قدم الوجود الإنساني، حيث أن الانسان الأول الذي كان يعتمد على الجاهز من الطبيعة في غذاءه ، وكان يتخذ من المغارات والكهوف مأوى له ، ولم يكن يدرك حقيقة الظواهر التي تحدث من حوله ، سرعان ما تدرج على سلم المعرفة لينتقل من المعرفة الحسية البسيطة إلى محاولات إيجاد تفسير للظواهر بإرجاعها ، إلى قوي غيبية ميتافيزيقية وهي المعارف التي طبعت الحضارات الانسانية الأولى مثل الحضارة الفرعونية والبابلية (بلاد الرافدين)والهندية والصينية ، والتي تميزت في مجملها بوجهة النظر الغائية والمعيارية ، ويقصد بالغائية البحث عن ما ينبغي أن يكون عليه الاجتماعي والسياسي ، أما المعيارية فهي تلك القواعد والوسائل التي بمقتضاها تتحقق المثل العليا والغائية المطلوبة ، وتمثلها وجهة نظر الفلاسفة والمفكرين في العصر اليوناني كما تبلورت في كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو، كما اتجه الفكر الروماني نحو وضع دعائم الحقوق والتشريع ، وفلسفة الأخلاق مبتعدا بذلك عن الفلسفة الاجتماعية ، وقد تدعمت هذه النظرة (النظرة الاخلاقية) بفضل اسهامات الحركات الفكرية الاخلاقية المسيحية ومن أبرز من مثل هذا التيار القديس أوغسطين Saint Augustin الذي وضع أفكاره حول المجتمع في كتابه (مدينة الله THE CITY OF GOD).

وعند ظهور الاسلام وانتشاره في القرن السابع الميلادي انتشرت معه المبادئ الاجتماعية الجديدة التي تضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ومن أشهر المفكرين المسلمين نجد الفارابي

(صاحب كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة) وابن خلدون الذي نادي بضرورة إنشاء علم العمران البشري (علم الاجتماع) .

3-الظروف الممهدة لنشأة علم الاجتماع :

سبق المفكر العربي عبد الرحمان ابن خلدون "أوجست كونت" إلى تطوير علم الاجتماع في العالم العربي بأربعة قرون. حيث ناقش في مقدمته طبائع العمران البشري والاجتماع الانساني التي عالج فيها معظم القضايا والمشكلات التي تعالج حتي الان في إطار علم الاجتماع ، والتي تضمنها مؤلفه المشهور : " ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " . إلا أن صعوبات اللغة والثقافة وسقوط الحضارة العربية الاسلامية وصعود الحضارة الغربية حال دون اتصال واستمرار أعمال ابن خلدون .

لقد كانت النشأة الغربية لعلم الاجتماع على يد أوجست كونت مرتبطة بظروف التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري والديني التي كان يمر بها المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت ، حيث أن ظهور علم الاجتماع كان استجابة للتطورات والمشكلات الاجتماعية في مرحلة الانتقال من النظام القديم (الاقطاعي) إلى النظام الجديد (البرجوازي) .

أولا التطورات الاجتماعية والاقتصادية : وتتمثل في أشكال النمو الاجتماعي والاقتصادي بفعل التناقضات الاجتماعية التي نمت وتطورت في احشاء النظام الأوروبي الاقطاعي ابتداء من القرن الحادي عشر ، وتمثلت هوة التناقضات بين الايديولوجيا الاقطاعية والطبقة الجديدة (البرجوازية المذهب البروتستانتي) والفلسفة (فلسفة التنوير) والعلمية (التقدم العلمي والفني) حيث حسمت المعركة لصالحها على حساب النظام الاقطاعي وبناء نظام جديد قائم على الرأسمالية والصناعة والعلم .

وبذلك تحول المركز الاجتماعي للإنتاج بظهور المدينة الصناعية عوض القرية التي كانت مركز النظام الاقطاعي ، حيث ظهرت المدينة لتحمل معها قيما جديدة تحمل شعارات فلسفية وفكرية وسياسية لعل ابرزها تحرير قوي العمل ، وانتقالها وحرية حركة رؤوس الأموال والتجارة في إطار مبدأ **"أدم سميث "** "دعه يعمل دعه يمر " ، وقد أفرزت هذه التحولات ظهور الطبقة العاملة من ناحية والملاك الجدد لوسائل الانتاج من ناحية أخرى (الطبقة البرجوازية) وقد أتسمت العلاقة بين الطبقتين الصاعدتين بالتوتر والقلق نتيجة لسعي الاخيرة للسيطرة على وسائل الانتاج وعلى الطبقة العاملة من خلال الاستغلال المفرط للعمال ، مما أدى إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية التي توفر تخصص علمي جديد لدراستها وتمثل هذا التخصص في علم الاجتماع .

ثانيا : كانت التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي اشرنا إليها مصحوبة **بتطورات فكرية وفلسفية** ، حيث عمل النظام الجديد على تقويض أركان المجتمع الاقطاعي القديم الذي كان يقوم على الشرعية الدينية المتمثلة في الكنيسة الكاثوليكية وعلى الفكر الغيبي اللاهوتي ، وتدعيم النظام الملكي التقليدي العائلي (الملك ظل الله في الارض) حيث أستعمل النظام الجديد أسلحة فكرية

جديدة متمثلة في المذهب البروتيستنتي وفلسفة التنوير (التي تشير إلى تنوير العقول من سيطرة الافكار غير العقلانية) .

وتعد فلسفة التنوير أول اتجاه فكري يدعو صراحة لتغيير الوضع القائم عن طريق النقد العقلاني حيث يطلق اسم عصر التنوير على فلاسفة ومفكري القرن الثامن عشر من أمثال جون لوك ودافيد هيوم ومونتيسكيو وجون ماري وفولتير وجان جاك روسو و سان سيمون و أدم سميث ، حيث وضعوا الواقع الأوروبي تحت مجهر التحليل والتشريح والنقد وذلك بمعيار العقل الخالص ومن اهم مبادئ فلسفة التنوير :

1- عقلانية الانسان
2- الكمال الانساني
3- مشروعية النقد بمعيار العقل الخاص
4- مشروعية الثورة والتغيير

ثالثا: التغيرات السياسية:

إدا كانت الثورة الصناعية تمثل الأرضية المادية التي استجاب لها علم الاجتماع ، وفلسفة التنوير تمثل الارضية الفكرية فإن الثورة الفرنسية (1789) تمثل الارضية السياسية لتحول المجتمع الاوروبي وتبلور علم الاجتماع حيث أحدثت بمبادئها الاساسية (الحرية ، المساواة ، الاخوة) هزات كبيرة على الصعيد السياسي لأنها دعت بصراحة إلى إحداث تغييرات سياسية في اروبا، حيث ظهرت الملكيات الدستورية ، عوض الملكيات العائلية التقليدية التي تقوم على الحق الإلهي ، وكانت بداية لفصل الدين عن الدولة ، وانهت بذلك احتكار الدين من أجل فرض الهيمنة السياسية وفرض الدولة عوض الكنيسة كان الطبيعي أن ينشغل علماء الاجتماع بالتحولات المتعددة التي مر بها المجتمع الاوروبي ، بالدراسة العلمية حيث ساهموا بأفكارهم في ايجاد علاج لأزمة المجتمع ، وبعد أن تم الانتقال إلى مجتمع جديد أخذ علماء الاجتماع على عاتقهم مهمة دراسة الظواهر الجديدة ، والمشكلات التي طغت على السطح جراء التحول السريع للمجتمع .

وبذلك انتقل علم الاجتماع من علم ملازم لأزمة المجتمع الأوروبي خلال مسيرة تحوله إلى علم للمجتمع يلامس ظواهره وبناه الاجتماعية ومظاهر تغيره .

يتبع ...